# الحياة الثقافية في مكة المكرمة في القرن التاسع عشر الميلادي

## تأليف: يحيى محمود بن جنيد(*)

**عرض وتحليل: جنان حسين أحمد(**)**

مؤلف هذا الكتاب علم بارز من أعلام علوم المكتبات والمعلومات المعاصرين في العالم العربي، وله بصمات واضحة في الحياة الثقافية والفكرية في المملكة، وذلك من خلال إسهاماته المتميزة في تشييد بيوتات الثقافة ومنارات العلم والمعرفة، والعمل على تطويرها لتكون معالم بارزة تعكس الدور الحقيقي للمملكة في بث الثقافة والعلم، ونشر المعرفة في أصقاع الدنيا.

ويحيى مدرسة فكرية تخرج على يديه مئات الدارسين الذين تعلموا منه الكثير من العلوم والمعارف والآداب، وتطبع البعض منهم بمنهجه المعرفي والفكري، وتأثروا بذلك المنهج، فكان يحيى مثلهم الأعلى للصدق في القول، والإخلاص في العمل. ولا زال عطاؤه العلمي مستمرًا من خلال عمله الحالي أمينًا عامًا لمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، وعضويته للعديد من المؤسسات الثقافية والفكرية في المملكة وبعض البلدان العربية، ورئاسته لتحرير

---

(*) ابن جنيد، يحيى محمود. الحياة الثقافية في مكة المكرمة في القرن التاسع عشر الميلادي. - الرياض: مؤسسة اليمامة الصحفية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م ٠- ١٩٢ ص .- (كتاب الرياض؛ ١٠٠).

(**) تخرجت من قسم اللغة الفرنسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة حلب عام ١٩٩٦م، دبلوم تأهيل تربوي من الكلية والجامعة ذاتها عام ١٩٩٧م.

دوريات علمية وثقافية معروفة بين أوساط المثقفين، مثل: مجلة عالم الكتب، وعالم المخطوطات والنوادر، ومجلة الفيصل، وعضويته لمؤسسات علمية وثقافية، وهيئات استشارية في المملكة وغيرها من البلدان العربية.

## هذا الكتاب:

يرسم هذا الكتاب الملامح العامة للحياة الثقافية في مكة المكرمة في القرن التاسع عشر الميلادي ١٢١٥ ـ ١٣١٧هـ، وهي حقبة تاريخية مهمة لرصد المكونات الثقافية فيها، والتي أثرت في حياة مجتمعها تأثيرًا واضحًا، وذلك أن مكة المكرمة تميزت في هذه الفترة بخاصية انتشار حلقات الدرس والتعليم في الحرم المكي والمدارس الرسمية والخاصة، كما أنها شهدت تزاحمًا في أعداد العلماء والأدباء والشعراء.

## محاور هذا الكتاب:

يتمحور هذا الكتاب في أربعة محاور رئيسة على النحو الآتي:

### المحور الأول - التعليم، منابعه ووسائله:

بيَّن المؤلف مدى أهمية الحرم الشريف في جمعه للعلم والعلماء، وهو: "يأتي على رأس الهرم التعليمي"، واسترعى الوضع التعليمي في الحرم المكي أنظار من وقفوا عليه مثل: سنوك هروخرونيه، حيث عَدَّه هذا الأخير أقدم الجامعات في مكة المكرمة، ويلقي المؤلف بعض الضوء على ما يقترحه سنوك في طريقة التعليم وطريقة التدريس والكيفية التي تم عليها، وهي:

أ - أن يقرأ المدرس أحد الكتب مستعينًا بأحد الشروح .

ب - القراءة في أحد الكتب والتعليق على النص من وجهة نظر علماء آخرين، بعدها وجهة نظر المدرس نفسه.

جـ - أن يلقي المدرس على طلابه ما قام بجمعه وتأليفه.

ومن أبرز الكتب المستخدمة في التدريس (شرح القسطلاني لصحيح البخاري وغيرها).

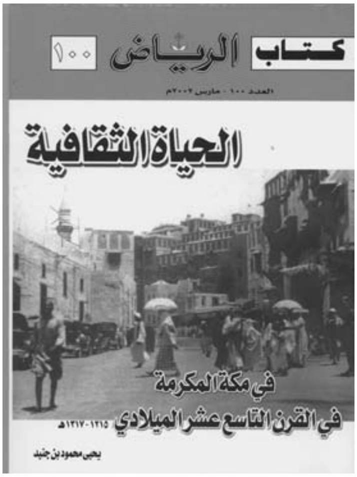
كتاب الرياض ١٠٠
العدد ١٠٠ - مارس ٢٠٠٢م
الحياة الثقافية
في مكة المكرمة
في القرن التاسع عشر الميلادي ١٢١٥-١٣١٧هـ
يحيى محمود بن جنيد

ويقوم محمد طاهر الكردي الخطاط، بإعطاء صورة عن التعليم في تلك الحقبة الزمنية، من خلال التركيز على العلوم الدينية والعربية، في التفسير، والحديث، والفقه، على المذاهب الأربعة، وعلوم البلاغة، والنحو، والصرف.

ويشير كل من : عبد الوهاب أبو سليمان، وعبد الله مرداد أبو الخير، وعمر عبد الجبار إلى سمو الروح العلمية بين جماعاتها.

أما من المدارس الرسمية والخاصة : فقد أوضح المؤلف مدى تجاوز حركة التعليم في الحرم المكي الشريف إلى تأسيس مدارس رسمية تعنى بتدريس مختلف الأعمار على غرار المدارس الرسمية في العصر العثماني، على سبيل المثال : إصلاح المدرسة الداودية.

وتظهر الوثائق أن من بين هذه المدارس المشهورة كذلك المدرسة المجيدية.

وكانت مستويات التعليم ـ كما أشار إليها المؤلف ـ مقسمة إلى النحو الاتي:

أ - كتاتيب.

ب - مدارس أولية دينية منها (الداودية، السليمانية).

جـ - مدرسة التعليم المتوسط وكانت تعرف بـ (الرشدية) وكانت تعلم الطلاب إلى جانب اللغة العربية اللغة التركية والرياضيات والتاريخ.

د - بعض المدارس الخاصة منها وأهمها المدرسة (الصولتية) التي أسهب المؤلف بالكتابة عنها لما كان لها من دور بالغ الأهمية في التعليم، وكانت على يد الشيخ محمد رحمة الله العثماني. والمدرسة (الفخرية العثمانية) سنة ١٢٦٩ هـ/ ١٨٧٨م على يد عبد الحق القارئ. وقد أسهم كل من إمداد الله الهندي، ومحمد يوسف خياط، وعلي بن صديق كمال في تأسيس المدرسة الخاصة.

**المحور الثاني - أعلام الحركة الثقافية:**

حفلت مكة المكرمة بمجموعة كبيرة من العلماء الذين أثروا في مسار الحركة الثقافية، إلى جانب عدد من الشعراء والأدباء وعلماء الفلك والطب.

- العلماء: برز علماء كثر تفرغوا لتدريس العلوم الشرعية والعربية، ومن أشهر من ذكرهم المؤلف:

السيد بكري بن محمد زين الدين شطا، وصاحب كتاب "إعانة الطالعين على حل ألفاظ فتح المعين" لكاتبه المليباري، والسيد علوي بن أحمد السقاف، وعباس بن جعفر بن صديق، وأمين بن محمد علي بن سليمان مرداد، وعثمان بن محمد شطا، وعمر بن عبدالله السقاف.

وقد أشار المؤلف إلى بروز عالمات مميزات في تلك الفترة، كانت أبرزهن فاطمة بنت حمد الفضيلي الحنبلي الزبيرية المعروفة بالشيخة الفضيلية، وأخرى أقل شهرة من الأولى، هي خديجة بنت إسحاق الدهلوية كريمة المروزية.

- الأدباء والشعراء: وقد أسهم الأدباء والشعراء في الحياة الثقافية في مكة، ومن أبرزهم عبد الله بن عبد الرحمن سراج ومن قصائده:

زار الحبيب فياله من زائر رشأ أرق من النسيم السائر

وعبد الله عبد الشكور بن محمد عبد الشكور، ومن شعره:

يا ملوك الجمال رفقًا علينا ارحموا موقف الغرام عميدًا

وكذلك علي بن عبد الله عبد الشكور الحنفي:

نظرت بني الدنيا فلم أر منهم أخًا صادقًا في وده وخطابه

أما أشهر شعراء تلك الفترة وأهمهم، فكان عبد الواحد الجوهري المعروف بالأشرم، وقد أبرز المؤلف آراء متعددة حول هذا الشاعر المعروف بقصائده الغزلية، وله رائية مشهورة مطلعها:

على جيد هذا الظبي فلينظم الدر وإليها فما للدر قدر ولا فخر

كذلك فإن عثمان بن محمد أبي بكر الراضي من أبرز شعراء الحجاز في عصره في كافة المجالات (الغزل ـ الوصف ـ المدح) يقول:

لاتنكروا شوقي إلى أم القرى وتهتكي بين الورى في ذكرها

ـ المؤرخون: وقد شهدت تلك الحقبة العديد من المؤرخين الذين اهتموا بجوانب من التاريخ الإسلامي، وتراجم الأعلام، ومنهم: محمد الحبيب الهيلة في كتاب: "التاريخ والمؤرخون في مكة" وعبد الله بن عبد الشكور بن محمد بن عبد الشكور الحنفي مؤلف كتاب: "تاريخ أشراف وأمراء مكة المكرمة" وغيرهم.

– العلوم الطبيعية والتطبيقية: وقد برع أعلام تخصصوا في العلوم الطبيعية والتطبيقية مثل: الحساب، والفلك، والطب والصيدلة، ومنهم: طاهر سنبل، ومحمد بن رمضان المرزوقي، وعبد الرحمن المتشح، وحسن المدراسي، وعبد الله الخضري المكي.

برع أعلام تخصصوا في العلوم الطبيعية والتطبيقية مثل: الحساب، والفلك، والطب والصيدلة

**المحور الثالث - الوراقة والنشر: والدراسة مقسمة إلى تبيان الآتي :**

- النساخ: حيث إن المكيين لم يمنعهم تأخر دخول الطباعة إلى مكة المكرمة حتى سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م من العناية بنشر المعرفة، من خلال نسخ المخطوطات ونشرها في بلدان أخرى، وذلك بهدف إشاعة العلم.

فمن الذين أولوا مهنة النسخ أهمية: عبد العزيز بن محمد صالح مرداد، وكان أشهرهم، وكذلك حسين بن إبراهيم المالكي، وصالح الحريري، وأحمد بن محمد المضراوي ... وغيرهم.

وكان جعفر بن أبي بكر اللبني، من أشهر نساخي تلك الحقبة، وقد ألف كتبًا كثيرة ومنسوخات متعددة، يذكر منها المؤلف: (رسالة للملا علي القاري ردًا على بعض الشافعية في مذهب الحنفية).

- النشر خارج مكة: وقد قام بعض المكيين بنشر كتبهم عبر المطابع العربية في مصر وغيرها، على سبيل المثال: مطبعة بولاق بالقاهرة، والمطبعة الوهبية بالقاهرة، والمطبعة الشرقية، ومطبعة شرف.

ونشرت أعمال في مطبعة إسماعيل أفندي في إستانبول، وبين المؤلف مما سبق أن علماء مكة حرصوا على نشر علمهم وتوفيره وإتاحته للآخرين، وأغلبها كانت في مطابع مصرية.

- الطباعة في مكة : قام الوالي العثماني الوزير عثمان بن نوري باشا بتأسيس المطبعة الميرية في الحجاز عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م، وطبع فيها ١٤٦ عنوانًا.

وقد كان للتصحيح دور مهم في تلك المطبعة، ومن بين الأعلام أحمد بن محمد زين الفطاني مصحح الكتب الجاوية الملاوية في المطبعة المكية، وعبدالحميد فردوس بن محمد بن عبد الغني الحنفي المكي، ولازم أحمد أبو الخير مرداد، وتبين أن علي أفندي هو الذي

كان يتولى الطباعة، وقد كان يشارك محمد أفندي المقدسي عبدالحميد فردوس في تصحيحه.

- استمرار النشر خارج مكة: لم يكتف علماء مكة بنشر أعمالهم في المطبعة الميرية بل استمروا في التعامل مع مطابع في دول أخرى، منها مطبعة بولاق، والمطبعة الوهبية في مصر عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م حيث ظهرت مجموعة من مؤلفات المكيين فيها، ومطبعة باتافيا بأندونيسيا، ويؤكد المؤلف على أن المعلومات السابقة تظهر نشاط علماء مكة في نشر أعمالهم، وذلك من خلال وسيلتين:

أ - النسخ اليدوي.

ب - الطباعة حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.

- الترجمة والنشر بغير العربية: وبين المؤلف أن نشاط علماء مكة قد تعدى التأليف والنشر بالعربية إلى الترجمة في لغات أخرى، وترجمة كتب بلغات أجنبية ونشرها.

ومن هذه الكتب المترجمة: "كتاب في الطب" لعبد العظيم الملتاني ترجمة عبد الله عبد الشكور بن محمد عبد الشكور، وقد ركز عند تأسيس المطبعة الميرية في مكة على أن تقوم بطباعة الكتب غير العربية، ومنها الكتب الجاوية، والتركية، والملاوية، نظرًا لوجود جاليات كبيرة هناك. وقد كانت الكتب المنشورة بالجاوية تصدر إلى أندونيسيا وتحظى بقبول كبير جدًا.

- تجارة الكتب: وقد تخصص بعض أبناء مكة ـ كما يشير المؤلف ـ بتجارة الكتب، ووزعت هذه التجارة إلى قسمين:

أ - شراء الكتب من مناطق تنشط فيها طباعتها مثل: مصر والهند.

ب - الإسهام في نشر بعض الكتب وتحويل طباعتها.

ومن أشهر تجار الكتب: أحمد عثمان الهندي، ومحمد بن علي بن أحمد الكناني. وكانت منطقة المسعى تضم بعض المحلات لبيع الكتب، ومن أهم المناطق لتجارة الكتب هي: منطقة باب السلام، والتي ذكر عباس طاشكندي مدى أهميتها، حيث إنها كانت تحفل بنوادر المخطوطات، وكان زوارها يقتنون النفائس من سوق الكتاب فيها.

**المحور الرابع - المكتبات الخاصة والرسمية والأندية الأدبية:**

أ - المكتبات الخاصة: فقد كانت مكة المكرمة تحتوي على مكتبات تحفل بنوادر الكتب، منها:

- مكتبة علي بن محمد القباني الذي كان عالمًا، وأديبًا، وشاعرًا اشتغل بتحصيل العلوم وشراء الكتب.
- مكتبة العالمة الفاضلة فاطمة بنت حمد الفضيلي الحنبلي الزبيرية، ومكتبتها كانت وقفًا على طلبة العلم الحنابلة.
- مكتبة أبي بكر بن عبد الوهاب زرع المكي، ومكتبة محمد المنشاوي، وغيرها.

وقد أظهر المؤلف أن آل شطا كانوا يملكون مكتبة حافلة قام بعد ذلك أحفادهم بإهداء ما فيها من كتب إلى مكتبة جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض.

وكانت هذه الكتب إما خطية أو مطبوعة، أما الخطية فيذكر المؤلف منها: شرح الجامع الصغير للسيوطي لشمس الدين العلقمي، وشرح جمع الجوامع للجلال المحلي وغيرها.

أما عن الكتب المطبوعة فذكر المؤلف منها الأذكار للنووي، وصحيح البخاري.

ومن خلال ما سرده المؤلف من عناوين تتجلى لنا ما كان للمكتبات الخاصة في مكة من ثراء، وتظهر في الوقت نفسه حرص علماء مكة

على اقتناء المخطوطات، كما أن الكثير من العلماء كانوا يملكون مكتبات منزلية تحتوي على مقتنيات كثيرة، ومن هؤلاء : عبد الرحمن بن عبد الله سراج.

ب - المكتبات الرسمية: وكانت في مكة المكرمة مكتبات رسمية ترعاها الدولة العثمانية، بعضها في المدارس وواحدة منها عامة، وعلى سبيل المثال: مكتبة في مدرسة محمد باشا رشدي الشيرواني في باب أم هانئ، لكن أهم المكتبات هناك في تلك الحقبة كانت مكتبة الحرم المكي، حيث كانت مقصداً للعلماء. وقد بنيت مكتبة وقفية خيرية بناء على وثيقة سعادة الآغا في موقع مجاور لبئر زمزم داخل الحرم، وكانت إستانبول المصدر الذي أغنى المكتبة بالكتب المتنوعة بأمر من السلاطنة المشجعين لحركة العلم، ومن هؤلاء السلطان عبد المجيد، وقد أشار المؤلف في سياق الحديث إلى المدرسة المجيدية التي كانت في طور التجديد والصيانة وشرع في بناء مقر مستقل لمكتبة الحرم المكي، ونقلت إليه ما تبقى من كتب السلطان عبد المجيد والشريف عبد المطلب أمير مكة.

ومن أهم الشخصيات التي عملت في مكتبة الحرم المكي الشريف: محمود شكري النقشبندي، وقد ألف كتبًا كثيرة، منها: عجالة الشكري في رد رسالة الرهبيني.

وكان الاسم الرئيسي لهذه المكتبة هو دار الكتب السلطانية، ومن بين الذين أسهموا في تنمية مجموعة المكتبات في مكة عن طريق الوقف، جملة من الأعلام، من بينهم: صالح الحريري، وأخوند جان البخاري.

جـ - المجالس والأندية الأدبية : لقد كان لأمور العلم والثقافة والتعليم والتأليف والنشر وارتياد المكتبات دور مهم وجلي، كما يظهر لنا القائم على هذه الدراسة، غير أن الاجتماع في بيوت العلماء والمشاهير كان له واقع أكبر حيث كان يدور النقاش والتحاور بين الحضور، فقد

كان للسيد علوي السقاف مجلس، ولأحمد الخطيب، ومحمد حسب الله، وعبد الله الزوواي، كذلك. وقد قام السيد أحمد بن أمين عبد الشكور بتأسيس منتدى أدبي، فخصص دارًا مستقلة بمحلة أجياد.

وقدم المؤلف عبر خاتمة نموذجية عرضًا موجزًا عن المخطوطات الأساسية لما قام بتأليفه وتنسيقه وإظهار الوضع الثقافي في أم القرى وحياتها النشطة التي أغنتها مجموعة من العلماء المشاهير، وألف الكثير منهم مؤلفات في فنون متنوعة من حديث وفقه وتفسير وسيرة نبوية وتراجم ومنطق وحساب وفلك .... إلخ.

ويذكر المؤلف بعض المؤلفين المشهورين في تلك الحقبة الزمنية، ويتوقف عند مؤلفاتهم، كما أنه لا ينسى التركيز على الجانب النسائي في هذا المجال.

وقد أولى اهتماما جمّا بالجانب الفني الذي كان له نصيب في مسار الثقافة في ذلك العصر من اهتمام بالموسيقى والأنغام .

## الخاتمة:

تؤكد هذه الدراسة بأن مكة المكرمة كانت مدينة تعج بالعلم والثقافة، فالعامة من الناس كانوا يجتمعون في المقاهي لسماع حكايات ألف ليلة وليلة وسيرة عنتر، والمثقفون كان معظمهم يدرس مجموعات من الشعر العربي وشروحها، كما شاع في مجالسها الاستماع إلى التلاوات المجودة من القرآن الكريم .

والكتاب موثق علميًا، إذ اعتمد المؤلف في الحصول على معلوماته من مظانها ومنابعها الأصلية وألحق بالكتاب كشافًا بأعلام مكة في القرن التاسع عشر والمترجم لهم في نشر النور والزهر، كما أعقب هذه القائمة الغنية لبعض النماذج من الكتب المخطوطة والمطبوعة والموقوفة في مكة المكرمة، وكذلك نماذج من أعمال بعض المكيين المطبوعة والمخطوطة من خلال دراسته لهذا الكتاب .

ولا يمكن إلا أن نشير إلى مدى أهمية هذا البحث والعطاء الذي جاد به الأعلام، والذي كان نتاج تحصيلهم وخلاصة تجربتهم، وهؤلاء الأعلام ممن هم من أصل مكي بحت، وآخرين ممن تعود أصولهم إلى مناطق مختلفة من البلاد العربية والإسلامية، صهرتهم بيئتها، وتوحدهم العربية لغةً والإسلام عقيدةً، وتوافرت فيها أدوات الثقافة ووسائل بثها ميسرة لكل راغب للعلم في أن ينهل منها ما يشاء.

وختامًا فإن هذا الكتاب بما تضمنه من معلومات علمية قيمة ودقيقة يعد مصدرًا مهمًا من مصادر المعلومات عن الحياة الثقافية في مكة المكرمة في القرن التاسع عشر الميلادي.